النفس والجسد في القرآن الكريم

بقلم: أ.د. محمود الذوادي – تونس

يجوز القول إن حديث آيات القرآن الكريم عن الجانبين النفسي والجسدي للإنسان تبدأ في أولى السور القرآنية. فسورة قريش تشير بوضوح إلى ذلك "فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف" (سورة قريش 4-3). والآيات القرآنية التي تفصل القول في هذا الصدد كثيرة، فهي ترسم بطريقة مباشرة أو غير مباشرة صورة شفافة لمعالم رئيسية مكونة للذات البشرية مثل الجسد ذلك الجانب الطيني/ المادي من الإنسان والروح التي تبث الحياة في الجسد. يطنب القرآن في ذكر النفس والقلب والعقل والروح والسمع والبصر وما نسميه (منظومة الرموز الثقافية) وهي: (اللغة والدين والتفكير والعلم والقيم والأعراف والقوانين والأساطير). تمثل تلك المعالم أبجدية طبيعة الإنسان هذا الكائن الفريد على وجه الكوكب الأرضي الأمر الذي جعل الله سبحانه وتعالى يشرفه وحده بخلافته له على الأرض: "وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ... الآية" (سورة البقرة 30).

البعد النفسي الروحي والجسدي

تؤكد الآيات القرآنية في جميع السور على الأهمية القصوى للإيمان بوحدانية الله كمعلم أساسي لكسب رهان البعد النفسي المستقيم في الشخصية البشرية المؤمنة التي تمارس شعائر دينية مختلفة مثل الصيام والصلاة اللذين يسبغان منافع لكل من الجسد والحالة النفسية للأفراد. فالصلاة تتم عند القيام بشيئين رئيسيين ألا وهما: الوضوء ومناسك الصلاة النفسية الروحية والرياضية المتمثلة في الركوع والسجود وقراءة آيات من القرآن الكريم والقيام بشعائر الانفصال عن كل

شيء يكدر صفو العزلة عن منبهات العالم الخارجي القريبة والبعيدة وما بينهما. يصف الله الصلاة المثالية بأنها تكسب المؤمن سلوكاً نفسياً سوياً: "إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر" (سورة العنكبوت 45) و"وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة" (سورة الأنبياء 73)، و"يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة" (سورة البقرة 153). أما الصيام فينظر إليه القرآن على أنه سبيل للتقوى التي هي قمة النفس المطمئنة في الرؤية القرآنية "يا أيها الناس إن خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم" (سورة الحجرات 13). ومنه "يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم الصيامُ كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون" (سورة البقرة 183).

http://nidaulhind.blogspot.in http://www.nidaulhind.com/

معاني النفس في القرآن الكريم

لكلمة النفس في الآيات القرآنية معانٍ مختلفة. نقتصر في هذا المقال القصير على ذكر البعض منها فقط ثم الإشارة إلى معالم مرتبطة بالعلاقات النفسية بين البشر في الرؤية القرآنية. لا يمثل ذلك إلا غيضا من فيض من مفاتيح علم النفس القرآني الواسع الأبعاد والآفاق والرؤى العميقة والبصيرة لخفايا النفس البشرية.

النفس ككائن حي أو كشخصية

تُستعمل كلمة النفس في كثير من الآيات القرآنية بمعنى الكائن الحي، كما تؤكد ذلك الآية "كل نفس ذائقة الموت" (آل عمران 185). من ناحية أخرى، تعبّر مفردةُ النفس في عددٍ كبيرٍ من الآيات القرآنية عن المعنى الحديث لمصطلح الشخصية في علم النفس المعاصر الذي يعرف الشخصية البشرية بأنها ذلك العنصر الثابت في سلوك الفرد والذي يتصف به ويميزه عن غيره من الناس عبر الزمان والمكان. وبعبارة أخرى، يحتضن مفهوم الشخصية البشرية معلما نفسيا للفرد. ومن ثم، فمصطلحا "النفس اللوامة" و"النفس الأمارة" الواردان في القرآن الكريم يصفان نمطين من الشخصية البشرية تتميز كل منهما بتوجهات وسلوكيات إيجابية أو سلبية خاصة بها.

أهمية العلاقات النفسية

تشير آيات قرآنية كثيرة إلى المنزلة العالية للعلاقة النفسية الجيدة مع الآخرين. فالقرآن يتحدث عن العلاقة النفسية الطيبة التي يتصف بها الرسول صلى الله عليه وسلم مع قومه فيقول: "... ولو كنتَ فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر..." (آل عمران 159). وتُختَم آيات سورة التوبة بآية العلاقة النفسية الجيدة التي تحملها شخصية الرسول نحو المؤمنين: "لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم" (التوبة 128). أما آية "ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليّ حميم" (فصلت 24)، فهي تشير بالبنان إلى قاعدة نفسية صلبة العود تمثل ركنا رئيسيا من علم النفس للعلاقات البشرية ألا وهو السلوك الحسن والطيب مع الناس الذي يحوّل حتى العدو إلى وليّ حميم. ومن ثم، تدعو الآيات الأولى من سورة الحُجرات المؤمنين لكي يتبنوا سلوكا حسنا راقيا حمالا لاحترام الرسول وحسن التعامل معه: "إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم. إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون. ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم والله غفور رحيم" (الحجرات (5-3).

فما ذكرناه في السطور السابقة ليس إلا شيئا قليلا من علم النفس القرآني الذي حظي بتأليف العديد من الكتب والبحوث، خاصة بعد النصف الثاني من القرن العشرين، نذكر منها ثلاثة عناوين فقط: من علم النفس القرآني للدكتور عدنان الشريف 1987، والدراسات النفسانية عند العلماء المسلمين للدكتور محمد عثمان نجاتي 1993، والشخصية الإنسانية في التراث الإسلامي للدكتور نزار العاني 1998.

القلب والعقل والنفس البشرية

تحتضن النفس البشرية القلب والعقل اللذين يوجهان سلوكها. استعمل القرآن فعل (عقَل) في صيغ مختلفة (49) مرة ولم يستعمل كلمة الْعَقْل كاسم. بينما استعمل القرآن كلمة قلب كاسم 122 مرة. يركز كتابُ (مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة لمحمد علي الجوزو) على دراسة ظاهرتيْ العقل والقلب في الإنسان. يعرف المؤلف العقل كأداة تأمل وإدراك. أما القلب، فهو قوة وراء العقل ذات فهم عميق لكسب اليقين. أي أنه عقل بصير أو رادار يمكن أن يدرك الزلات التي يمكن أن يقع فيها العقل. إذن، فالإنسان ليس عقلا جافا بل هو عقل وقلب أو قلب يعقل "أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور" (الحج 46)، فالقلب يملك القدرة على التأليف بين شيء من التعقل وشيء من التعاطف. بعبارة أخرى، فالقلب هو عقل متوازن.

النفوس البشرية وأمراض قلوبها

يأتي ذكر كلمة نفس في المفرد وغيره 295 مرة في القرآن، وتُذكر كلمة قلب في المفرد وغيره 122 مرة في آيات القرآن الكريم. يستعمل القرآن كلمة "مرض" مع كلمة قلوب 12 مرة ولا يستعملها مع كلمة نفوس. يرى

http://nidaulhind.blogspot.in http://www.nidaulhind.com/

بعضُ المفسرين أن لكلمة "مرض" في القرآن معاني مختلفة: ضعف أو شك يمنعهم من التصريح بالكفر أو الإيمان أو حسد المنافقين. تفيد هذه المعاني سمات تندرج في مواصفات للمعالم النفسية لشخصيات المعارضين للدعوة الإسلامية التي نادى بها الرسول العربي محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم. وهكذا، يتجلى كأن للقلوب في القرآن لمسات نفسية تتجاوز وظيفة مجرد ضخ الدم في أجساد البشر كما يغلب على تبني رؤية العلوم الحديثة. يرى الجوزو أن القلب في القرآن والسنة يبدو متميزا عن العقل، إذ هو عقل ملهم ومبصر. إنه عقل يشعر من أعماق الذاتية الإنسانية فيدرك حقائق الأشياء بنور إلهي. من ثم، فهو مكان الوحي والإيمان والتقوى والعلم. فهو أعظم عضو في النفس البشرية، إذا صلح كسب الجسد كله عينَ الصلاح. فهو، إذن، المَلِكُ ومملكته هي النفس البشرية كما يعبر الجوزو عن ذلك في صفحات كتابه.

النفس المستقيمة في أحضان الرموز الثقافية

تؤكد آيات قرآنية كثيرة على أن الصحة النفسية للبشر لا تتم دون اكتساب شخصياتهم لمجموعة من القيم الثقافية يأتي في طليعتها الإيمان بوحدانية الله. فعينة الآيات التالية تفصح عن ذلك بوضوح وشفافية كاملَيْن: مثلاً الآية: "إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء" (النساء 48)، والآية: "ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق" (الحج 31)، "وإذ قال لقمانُ لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم" (لقمان 13).

يتحدث القرآن كثيرًا عن العمل الصالح بوصفه سمة مركزية للنفس المؤمنة. ومن ثم، جاء اقتران الإيمان بوحدانية الله بسلوك العمل الصالح في عدد كبير من آيات القرآن الكريم: "فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم" (الحج 50)، و"من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يُرزقون فيها بغير حساب" (غافر 40). يبرز القرآن أن سمة التقوى هي أسمى صفات الشخصية الإنسانية السوية. كما أن المساواة التامة بين جميع البشر هي قيمة ثقافية عليا في الرؤية القرآنية بغض النظر عن اللون والعرق ونوعية الشعر وطول وقصر القامة والمكان الجغرافي والخلفية الثقافية. أي أن الشخصية البشرية تكون سليمة نفسيا عندما تتبنى بقوة قيمة المساواة الكاملة بين الأجناس البشرية. فضُعف أو فقدان هذه القيمة الثقافية لدى العديد من رواد العلوم الاجتماعية الغربية سلوك منكَر في الرؤية المعرفية الإسلامية. ومن حسن الحظ أن هناك معالم صاعدة منذ عقود من العلوم الطبيعية والاجتماعية تبشر بتغيير في العمق لصالح المساواة بين الأجناس البشرية في كسب رهان الإنسانية الكاملة بغض النظر عن الاختلافات السطحية بينها مثل لون البشرة وطول أو قصر القامة والقيم الثقافية: "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير" (الحجرات 13).

قطبا النفس البشرية

يتحدث القرآن الكريم بوضوح عن طبيعة النفس البشرية الحمّالة لبُعديْ الخير والشر، وبالتالي فهي ظاهرة تتصف بالجدلية والتناقضات في سلوكياتها الأمر الذي يضفي عليها المسؤولية في سلوكياتها المتعددة. يقول الله تعالى: "وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يُرى" (النجم 39). وفيها تعبير عن البعدين المتناقضين في عمق طبيعة النفس البشرية، ويقول عز من قائل: "ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها. قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها" (الشمس(10-7). يؤهل هذان البعدان المتعاكسان النفسَ البشرية لكي تكون ظاهرة تتسم بالحركية الدائمة والحيوية. ويمكن اعتبار حضور هذيْن البعدين القويّين في صُلب النفس البشرية سمة بارزة يتميز بها الإنسان عن بقية كائنات الأجناس الحية الأخرى. كما يتميز أيضا عنها في المقام الأول بتسلحه بمنظومة البعد الثالث الذي تمثله الرموز الثقافية: اللغة والفكر والدين والعلم/المعرفة والقيم والأعراف الثقافية والأساطير...أي أن الإنسان في تصورنا الأكثر دقة لطبيعة الكائن البشري ليس جسدا وروحا فقط كما هو شائع في القديم والحديث، وإنما هو (جسد + روح + رموز ثقافية/ البعد الثالث). ولا يخفى ما لهذا البعد من دور في هداية النفس البشرية إلى السلوك السوي أو إلى السلوك غير المستقيم.

http://nidaulhind.blogspot.in http://www.nidaulhind.com/